مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية
المجلد 150 (2): 108-120

Damascus university journal of Historical Studies
V 150 (2):108-120

دراسة استشرافية
لمآل نبوءات نظريتي (نهاية التاريخ- وصراع الحضارات)

د. فراس فرزت القطان[1]

قسم الدراسات السياسية- كلية العلوم السياسية- جامعة دمشق
feras79.katta@damascusuniversity.edu.sy

الملخص:

يعرض البحث بشكل مكثف أهم الأسس الفكرية التي استندت عليها (نظريتا نهاية التاريخ، وصراع الحضارات)، محاولاً الوصول إلى استراتيجية مبنيّة على أسس علمية تهدف إلى تفنيد ودحض مزاعم هاتين النظريتين.

ويبيّن البحث واقع ما آلت إليه هاتان النظريتان بعد أكثر من ثلاثة عقود من ظهورهما والترويج لهما.

وتأسيساً على ذلك سعى إلى تقديم دراسة تحليلية توضح بعض التصورات عن مصير ومستقبل الأفكار التي تنبأت كلتا النظريتين بحدوثها وقامت بالدفاع عنها.

الكلمات المفتاحية: نهاية التاريخ، صراع الحضارات، فرانسيس فوكوياما، صموئيل هنتنغتون، الديمقراطية الليبرالية.

تاريخ الايداع: **18/8/2024**
تاريخ النشر : **3/11/2024**

حقوق النشر: جامعة دمشق -سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب **CC BY-NC-SA**

A prospective study of the fate of the prophecies of two theories (The End of History - The Clash of Civilizations)

Dr. Feras Farzat Alkattan[1]
Department of Political Studies - Faculty of Political Sciences - Damascus University
feras79.katta@damascusuniversity.edu.sy

Received: **18/8/2024**
Accepted: **3/11/2024**

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a **CC BY- NC-SA**

Abstract:

This research thoroughly examines the key intellectual foundations upon which the "end of history" and "clash of civilizations" theories are based, attempting to develop a scientifically grounded strategy to refute and disprove the claims of these two theories. The research also reveals the current state of these theories after more than three decades since their emergence and promotion. Based on this, it seeks to offer an analytical study that clarifies some perceptions regarding the fate and future of the ideas that both theories predicted and defended.

Keywords: End of History, Clash of Civilizations, Francis Fukuyama, Samuel Huntington, Liberal Democracy.

المقدمة:

تُعدّ (نظريتا نهاية التاريخ، وصراع الحضارات) اللتان طرحهما كل من فرانسيس فوكوياما، وصموئيل هنتنغتون مع نهاية الحرب الباردة بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي من أبرز الموضوعات التي شغلت الدراسات السياسية في تاريخنا المعاصر، نظراً لمخاطر ما لوّحتا به من وعيد وتهديد لدول الشرق وبالأخص البلدان الإسلامية، وتأكيدهما على حتمية الصراع بين دول الغرب والعالَم الإسلامي.

وإذ يتناول البحث هاتين النظريتين العنصريتين، فمن الطبيعي أن يشير إلى أبرز أسسهما الفكرية التي سعت إلى تفكيك ركائز حضارات شعوب وأمم دول الشرق، وإقامة ركائز غربية مكانها، بهدف استمرار السيطرة عليها.

وقد أوضح البحث بإيجاز كيفية تبنّي مراكز اتخاذ القرار السياسي وصنّاع القرار في الغرب هاتين النظريتين، واستثمار أفكارهما والاستفادة منها من خلال التطبيق العملي لمضمونها بعد أحداث الحادي عشر من أيلول عام 2001.

ويضع البحث أفكار النظريتين في ميزان النقد المنهجي متفحّصاً حقيقة علميّتهما، وإمكانية استمراريتهما، مبيناً الانتقادات التي وُجِّهت لكلتيهما في السنوات الأخيرة مِن قِبَل منظّري وباحثي ومفكري الغرب ذاته، بل حتى مِن قِبل تلامذة هنتنغتون، وبالأخص فوكوياما مؤخراً.

أهمية البحث:

تتضح أهمية البحث من خلال البرهان على القصور في الرؤية والمغالطات العلمية التي وقعت بها (نظريتا نهاية التاريخ وصراع الحضارات)، كما تبرز أهمية البحث في تقديمه تصورات ورؤى –مبنية على تفحّص ومعاينة الأحداث والتطورات على الساحة الدولية– حول مصير أفكار هاتين النظريتين مستقبلاً ومدى قابليتها للحياة أو الاستمرار.

مشكلة البحث وأسئلته:

تكمن مشكلة البحث في تبيان الكثير من العوامل والمتغيرات التي تشير إلى ما ستؤول إليه نبوءات (نظريتي نهاية التاريخ وصراع الحضارات).

ومن ثم فإن البحث يحاول الإجابة على التساؤلات التالية:

1- هل تستند (نظريتا نهاية التاريخ وصراع الحضارات) على أي مرتكزات علمية أو تاريخية؟
2- ما هو الواقع الذي آلت إليه (نظريتا نهاية التاريخ وصراع الحضارات) بعد أكثر من ثلاثة عقود على طرحهما؟
3- هل ستتحقق نبوءات (نظريتي نهاية التاريخ وصراع الحضارات)؟

فرضيات البحث:

1- إن (نظريتي صراع الحضارات ونهاية التاريخ) تبتعدان –كغيرهما من النظريات العنصرية الأخرى– عن الموضوعية في الطرح، ولا تمتلكان أي سند علمي.
2- إن أفكار (نظريتي نهاية التاريخ وصراع الحضارات) لا تتناسب مع الواقع الحالي، وقد بدأت بفقدان الكثير من وميضها.
3- لن تعمِّر أفكار (نظريتي نهاية التاريخ وصراع الحضارات) طويلاً، ولن تُكتب الحياة لنبوءاتهما.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

1– البرهان على أن النظام الديمقراطي الليبرالي لا يمثل قيمة إنسانية كونية، وليس قدَراً حتميّاً يفرض الانصياع له، وذلك بغية التنبيه لضرورة عدم الاستسلام والانسلاخ عن الهوية والتبعية لدول الغرب، تحت سطوة ما يتم التنظير له بقوة من قبل مفكري قوى عالمية كبرى تحاول انتزاع الشعوب من ثقافاتها وأصولها وإرثها ومعتقداتها وقيمها، بغية إحكام السيطرة عليها.

2– التأكيد على أنَّ الحوار بين الحضارات هو الحل الأنسب كبديل عن الصراع، حيث إن ثمّة ارتباطاً وثيقاً بين الحوار والإبداع الحضاري.

المنهجية العلمية المتَّبعة:

تم اعتماد المنهج الاستشرافي الذي يقوم على توقّع اتجاه الأحداث المستقبلية المحتملة التي روّجت لها وأنبأت بها (نظريتا نهاية التاريخ وصراع الحضارات)، وذلك بناءً على تحليل المؤشرات الحالية والمتغيرات التي يمكن أن تؤثر في مسار هذه الأحداث.

أولاً: الأسس الفكرية للنظريات العنصرية المعاصرة

بعد انتهاء الحرب الباردة، ظهرت بعض النظريات التي حاولت أن ترسم ملامح الصراعات المقبلة استناداً إلى انهيار الاتحاد السوفييتي، وبروز الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها القطب الأوحد في العالم والقوة المسيطرة على ما أصبح يصطلح عليه اسم (النظام العالمي الجديد).

وتُعدّ أطروحتا (نهاية التاريخ) و(صدام الحضارات) أكثر أطروحتين بارزتين على هذا الصعيد، تأييداً للنظام العالمي الجديد.

1– القضايا الرئيسة التي استندت عليها (نظرية نهاية التاريخ):

لقد سارعت الحضارة الغربية إبّان انتهاء الحرب الباردة إلى تبرير مفردات التسلط والعنف من خلال سيطرة أفكار النهاية والانحطاط، فجاء في كتاب (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) عام 1992 للمفكر الأمريكي ذي الأصل الياباني فرانسيس فوكوياما، أن العالم الثالث يمثل عصراً بدائياً للبشرية أسيراً للتاريخ يصعب تحرره منه، فهو عالَم القواعد القديمة لسياسة الصراعات القومية والإثنية والمذهبية والأيديولوجية، أمّا الذات الغربية فقد تخطت بنظره الدورة التاريخية، ووصلت إلى حالة التطابق بين المُثل والواقع بالغةً الكمال الأخير (عروس، 2002، 119).

وقد عدّ فوكوياما أنّ البشرية قد وصلت إلى (نقطة الختام) في تطورها الأيديولوجي، وأن النظام الديمقراطي الليبرالي الغربي هو الشكل النهائي للحكم البشري، والطموح السياسي المنطقي الوحيد الذي سيشمل مختلف الدول والثقافات في العالم، مما يؤدي من وجهة نظره إلى تطور المجتمعات والدول كلها خارج إطار أصولها التاريخية وإرثها الثقافي.

ويلجأ فوكوياما إلى الفلسفة الهيجلية، لكي يؤكد أنّ التاريخ يسير عبر جدلية صراع الأفكار نحو غائية حتمية تتجلى في ثبات الدولة الليبرالية– الديمقراطية التي تخلو من التناقضات.

وباعتقاد فوكوياما أنّه من المستحيل تجاوز البشرية للنموذج الأمريكي، مؤكداً أنّ العالم الإسلامي قد فشل في اكتساب مبادئ الليبرالية، وأنّ قيمه التقليدية تتناقض تماماً مع قيم الغرب الليبرالي، وبالتالي فإنّ الإسلام يشكّل الخطر الأكبر الذي سيضطر الغرب إلى الدخول في صراع محتوم معه، مثلما كان مضطراً إلى الدخول في صراع مع الفاشية والشيوعية.

2– القضايا الرئيسة التي تناولتها (نظرية صراع الحضارات):

بالتزامن مع (نظرية نهاية التاريخ) ظهرت نظرية (صراع الحضارات) عام 1993 للمفكر الأمريكي صموئيل هنتنغتون.

وقد صنَّف هنتنغتون العالم إلى ثماني حضارات، وحدد الصراع الأساسي في ثلاث مجموعات حضارية، هي الحضارة المسيحية الغربية في مواجهة الحضارتين الإسلامية والصينية الشرقيتين، مبيناً أن أسباب الصراعات ستختلف عن المراحل السابقة لانهيار الاتحاد السوفييتي، حيث كانت الأيديولوجيات هي الدافع للصراع، وسوف تصبح الحضارات هي الأساس في الصراعات والحروب مستقبلاً.

ويشرح هنتنغتون معنى (الحضارة) في عبارته (صدام الحضارات) قائلاً: "إن محددات الحضارة هي اللغة والتاريخ والدين والعادات والمؤسسات، والهدف من ذلك هو تصنيف البشرية إلى ثلاث مجموعات أساسية تمثل أوسع المجموعات الحضارية، بحيث لا يمكن جمعها في أي كيان حضاري أعلى، وهي الحضارة الغربية، والحضارتان الإسلامية والصينية" (الجابري، 1997، 99–100).

ويؤكد هنتنغتون على أنه لمّا كان الغرب متقدماً ومسيطِراً، وكان كل من العرب المسلمين والصينيين يطمحون إلى التقدم والرقي ويطلبون التحديث، وفي الوقت ذاته يرفضون التغريب، فإن الصراع سيكون ثنائي الأطراف بين الحضارة الغربية من جهة، والحضارتين الإسلامية والكونفوشيوسية من جهة أخرى (إسماعيل، 2003، 311).

ويعتقد هنتنغتون أن الستار الحديدي الَّذي كان يقسم أوروبا إلى غربية وشرقية، قد حلّ مكانه ستار حضاري مشيَّد من الدين والتاريخ، وهو الصدام بين المسيحية الغربية والإسلام، مؤكداً على أن: "المشكلة المهمة للغرب ليست في الأصولية الإسلامية، بل الإسلام، فهو حضارة مختلفة..." (هنتنغتون، 1999، 352)، مستعيناً بالأحداث التاريخية ليبرهن على أن للإسلام حدوداً دموية، فيبدأ من زمن الفتوحات الإسلامية، حيث وصل العرب إلى مدينة (تور بفرنسا عام 732م)، وتجدد الصدام بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر في عهد المملكة العثمانية، وصولاً إلى الإرهابيين الإسلاميين الَّذين قاموا بقصف المنشآت الغربية، وأخذوا رهائن غربية.

وهنا تبرز فكرة العنصرية الغربية، فحين يشكو العرب من كون الغرب يطبق مقياساً مزدوجاً عندما يتعلق الأمر بعدوان غربي، يرد هنتنغتون بقوله: "إن عالم صراع الحضارات لابد أن يكون عالم ازدواج المقاييس، تطبق فيه الدول مقياساً على الدول التي تماثلها وتربطها بها صلة قرابة، ومقياساً مختلفاً على الدول الأخرى" (الجابري، 1997، 116–117).

إن أوضح ما يميز (نظريتي نهاية التاريخ وصراع الحضارات) هو توجههما الشديد نحو العروبة والإسلام تحديداً، فقد تمّ النظر للإسلام على أنه عدوّ شبه أوحد إذا ما اعتُبِرت الحضارة الكونفوشيوسية (الصينية) عدواً آخر للغرب، إلا أن هذه الحضارة لم تبلغ في الحقيقة ولو جزءاً بسيطاً من العداء الذي تعرض له المسلمون والعرب.

3– التطبيق العملي (لنظريتي صراع الحضارات ونهاية التاريخ) بعد أحداث الحادي عشر من أيلول 2001:

مع أحداث 11 أيلول عام 2001 في الولايات المتحدة الأمريكية دأبت الإدارة الأمريكية على طرح أفكار وتهديدات مثل: (إن أتتنا الحملات الإرهابية الإسلامية فستشهد الشر.. إنهم يكرهون قيمنا.. مسؤوليتنا أمام التاريخ الردّ على الهجوم والتخلص من الشر.. الحملة "الصليبية" ستأخذ وقتاً.. إنها حرب حضارات).

وكثيراً ما رددت مصطلحات مثل: (إنقاذ عالمنا)، (المسألة التي تخص بقاء البشرية)، واستخدمت تعابير مثل تقسيم العالم إلى (محور الخير، ومحور الشر)، ومحور الشر هو كل الدول المارقة التي لا تنسجم مع سياسة الولايات المتحدة، واضعةً العالم أمام خيار: (من ليس معنا فهو ضدنا).

وأخذت تبتكر طُرُقاً تمنحها مشروعية استخدام القوة في العلاقات الدولية، وهذا ما جسَّدته بعبارة: "الاستخدام الوقائي للقوة من طرف واحد، كمعادل للدفاع عن النفس، توقعاً للخطر" (بسيوني، 2003، 16).

وطفت على السطح آنذاك مقولة صدام الحضارات، والتي وضعت الغرب في مواجهة الإسلام، وصدر بيان المثقفين إبّان تلك الأحداث، والَّذي مثّل وثيقة فكرية تعبّر عن اليمين في بعديه السياسي والديني، والَّذي يعمل على تبرير الحرب (العادلة) استمراراً لأفكار هنتنغتون (أمين، 2002، 21)، فسيطرت على الخطاب السياسي والثقافي الأمريكي مصطلحات من قبيل (شن الحرب من أجل تحقيق السلام)، (الحرب الوقائية)، (ليبرالية الحرب؛ حفاظاً على الأمن والسلام ضد الدول "المارقة" التي لا يحكمها أي مبدأ أخلاقي).

وهذا ما كان هنتنغتون قد روّج له مسبقاً حين قسّم العالَم إلى حضارات متخاصمة، يبدو الغرب فيها فريداً في حضارته ومستهدَفاً من الحضارات الأخرى ولاسيّما الحضارة العربية الإسلامية.

4– **دحض الأسس الفكرية التي استندت عليها "نظريتا" صراع الحضارات، ونهاية التاريخ:**

يمكن إيجاز أهم المغالطات الفكرية والمنطقية والعلمية والعملية التي وقعت بها (نظريتا نهاية التاريخ، وصراع الحضارات)، استناداً إلى وقائع التاريخ وأحداث الحاضر ومتغيراته بما يلي:

أ– لقد رسمت نظرية صراع الحضارات حدود العدو حول الإسلام، وإذ يجرّم "هنتنغتون" الإسلام ويحمّله مسؤولية الصدامات والحروب، فإنه في الوقت ذاته يتعامى عن سلسلة الحروب التي قام بها الغرب منذ فجر التاريخ، ابتداءً من حروب الإسكندر المقدوني والبيزنطيين، فالحروب "الفرنجية"، ثم الحروب الاستعمارية في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، الأمر الذي يوضحه المستشرق الموضوعي الفرنسي بول فييل بقوله: "العرب بالنسبة لنا هم (الآخر) طوال تاريخنا...، الغرب استعمر البلدان العربية وارتكب بحقها الكثير من الفظائع...، قام الألمان بخلق النازية لكنهم اعترفوا بمسؤوليتهم وقالوا كنا نازيين، بينما نحن في الوقت الراهن لم نعترف بهذه المسؤولية إزاء (الآخرين)، ونخفي عدم اعترافنا تحت قناع العنصرية السائد هذه الأيام... نحن مذنبون لأننا لم نكتشف بعد حلاً لتلك العلاقة غير المتوازنة..." (الشيخ، 1999، 153).

ب– تمثل أفكار (نظريتي نهاية التاريخ، وصراع الحضارات) رؤية سياسية غربية للعالم بأسره تهدف إلى توظيف مصطلح العولمة بالطريقة التي تناسب تفكير الغرب ونمط حياته.

لقد انتقد المفكر الفرنسي روجيه غارودي ذلك، مؤكداً على ضرورة الحل بقوله: "إن المشكلة الأساسية في الثقافة الغربية هي التطور التسلطي الَّذي يجب أن نقضي عليه"، مشيراً إلى ضرورة الإسهام في تغيير المفاهيم الغربية من خلال: "إسباغ النسبية على –مفهومنا الغربي– وتحويل رؤيتنا للعالم عن تركيزنا على (ذاتنا) الصغيرة..." (غارودي، 1978، 93+190).

ج– إن ما تهدف له نظرية صراع الحضارات هو إلغاء حضارات الأمم وإقصاؤها لمصلحة حضارة واحدة هي الحضارة الغربية، وفي ذلك إلغاء للقاعدة الأساسية للإبداع الثقافي والحضاري، ألا وهي التعدد والتنوع.

وعلى الخط ذاته، فإنّ نظرية نهاية التاريخ ما هي إلا فكرة ذات نظرة أحادية تقوم بتكريس العصبية الدينية والفكرية والقومية التي تستنفر عوامل الانقسام والصراع بين أبناء البشر، وتقوم بإلغاء خصوصية كل حضارة، مكرّسة عناصر الوصاية والهيمنة والاستعباد...

د– إن محاولة فرض النظام الديمقراطي وفق النموذج الرأسمالي الغربي، كما تبشّر به مقولة نهاية التاريخ، تتناقض مع الديمقراطية ذاتها مفهوماً نظرياً وممارسةً عملية، فضلاً عن كونها تتناقض مع قانونية التطور الاجتماعي العام، فمسار التطور التاريخي للمجتمع البشري عبر مراحله السابقة كافة أثبت فشل فكرة نظام واحد للحكم في العالم، أو نمط سياسي أيديولوجي واحد، ثمّ أين "الديمقراطية" التي وعد بها الغربُ والكثيرُ من مفكّريه الشعبَ العراقيَّ بعد احتلاله؟!.

هـ– تنطلق (نظريتا نهاية التاريخ، وصراع الحضارات) من نظرية (عنصرية) وتمييز بين الدول والأمم، وهذا يتناقض مع الشرعية الدولية وحقوق الإنسان والقيم والمبادئ التي جاءت بها الأديان السماوية وجميع المصلحين والمفكرين الذين أكدوا على قضايا العدالة والمساواة والحرية لجميع الأمم والشعوب.

و– لا تستند (نظرية صراع الحضارات) إلى أية مرتكزات علمية أو تاريخية؛ حيث تبيّنُ العودة إلى القرون الماضية وجود صراع داخل الحضارة الغربية ذاتها وبين دولها من أجل التوسع والسيطرة داخل أوروبا وخارجها، مثل "حروب الثلاثين عاماً، حروب لويس الرابع عشر، حروب نابليون بونابرت، الحربان العالميتان الأولى والثانية..."(القطان، 2025، 9).

ز– لقد تعامَت هاتان النظريتان عن حتمية تاريخية تؤكد أن لكل حضارة ذروة، حتى إذا ما بلغتها بدأت بالشيخوخة والتآكل وصولاً للانهيار، لتحلّ مكانها حضارة أخرى وهكذا...

ح– ليس (لنظرية صراع الحضارات) أساس حقيقي في مسارات التطور البشري؛ فحضارة أية أمة لا يمكن أن تكون بمعزل عن التفاعل الثقافي والحضاري مع الأمم والشعوب الأخرى، وتؤكد الحقائق التاريخية أنَّ هناك علاقة وثيقة بين الحوار والتفاعل – اللذَين يساعدان على إدراك القواسم المشتركة وتفهّمها بين الحضارات– وبين قابلية الإبداع الحضاري، بما يؤدي إلى التوازن وإبعاد مظاهر الهيمنة، وفي تجربة الاستعمار الغربي ما يؤكد ذلك؛ إذ عمل على تعميق أثره الثقافي لدى الشعوب التي احتلها دون أن يفلح في انتزاع الشعوب من ثقافاتها ومعتقداتها....

ط– حين عدَّ هنتنغتون الصراع بين الحضارات هو الصراع بين الأديان فقد وقع في مغالطة كبيرة، وهي عدم التمييز بين (الحضارة والثقافة)، ذلك أن الحضارة على حد تعبير المفكر اللبناني (علي حرب) تتعلق بأسباب العيش ووسائله وأساليبه، بينما تتعلق الثقافة بنظام المعنى وعناوين الوجود، وعليه يرى (حرب) أن الحديث عن صراع الحضارات هو أكذوبة مضللة؛ فلا أحد يقف موقف الضد من منتجات الحضارة الغربية من اختراعات تساعد الإنسان على تحسين سبل عيشه، وبالتالي فإن الصدام الحقيقي هو الصراع بين الثقافات، وهذا الصراع غير مقتصر بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، بل هو ممتد ضمن الثقافة الواحدة، ومن بينها الثقافة الغربية ذاتها التي تعيش على وقع صدامات متنوعة، كما أن الغرب ليس عالماً مغلقاً لا انقسام فيه، ولا هو جبهة واحدة ضد الإسلام (يخلف، 2018).

ي– لم تستطع نظرية صراع الحضارات تحديد الرابط بين حضارة ما والسياسة الخارجية للدول المنتمية إليها؛ فأكثر ما يهم الدول هو مصالحها المحلية وليس مصالحها ضمن مجموع الدول التي تتشابه بذات الدين والتاريخ وغير ذلك من القيم المشتركة، ولم تزل محركات الصراع هي العوامل الجيوسياسية والاقتصادية والسيطرة على التجارة والموارد...، وبهذا استمرت الصراعات لأسباب أساسية سياسية ومادية لا لأسباب حضارية.

ك– إن دول العالم الإسلامي لم تعد تتنازع لقيادة العالم كما كان في فترات سابقة (كالخلافة العباسية، أو الدولة الأموية في الأندلس، أو الدولة العثمانية، أو الصفوية)، فهذا المستوى من التنازع سقط لدى أغلبية الدول الإسلامية؛ إذ أضحى المحرك

الأساسي لهذه الدول هو صراع المصالح، بل أكثر من ذلك فقد أدى تدهور العلاقات بين عدد من الدول الإسلامية إلى اختلاف مصالحها حول الكثير من القضايا، وهناك دول إسلامية كثيرة تتهددها النزاعات الأهلية والخلافات المذهبية والحروب الإقليمية (مصطفى، 2010، 73).

ل– لا توجد أي مؤشرات على التحالف بين الحضارتين (الكونفوشيوسية والإسلامية) ضد الحضارة الغربية –كما يرى هنتنغتون–، خاصة في جانبه العسكري.

م– ما يفنّد أيضاً بعضاً من جوانب (نظرية صراع الحضارات)، التي ترى أن العنف ينبع من الدول الإسلامية كحضارة تجاه الحضارة الغربية، هو أن التنظيمات الإرهابية تمارس العنف ضد سكان الدولة التي تنتمي لها أكثر من العنف الذي تمارسه ضد القوى الغربية، كما أن إرهاب اليوم هو صنيعة بعض الأنظمة الغربية تحت راية إسلامية وضحاياه هم المسلمون، وأبلغ مثال على ذلك تنظيم (داعش) الإرهابي.

بناءً على ما تقدم يتضح أن (نظريتي نهاية التاريخ وصراع الحضارات) ما هما إلا نظريتان عنصريتان بغيضتان، تفتقدان لأدنى مقومات العلمية والموضوعية، وتسعيان لإثبات أن الثقافة الغربية هي ثقافة كونية مطلقة، بهدف اقتلاع الشعوب من جذورها الحضارية والتخلي عن هويتها وقيمها لصالح ثقافة الغرب وقيمه، وصولاً لتحقيق السيطرة وفرض النفوذ بكل أشكاله على باقي شعوب العالم وخاصة البلدان الإسلامية.

ثانياً: آفاق نبوءات (نظريتي صراع الحضارات، ونهاية التاريخ)

تأسيساً على النقاط والركائز التي فنّدت علمية (نظريتي صراع الحضارات، ونهاية التاريخ)، إضافة لظهور جملة من التطورات على الساحة الدولية، يمكن التنبّؤ بما ستؤول إليه الأفكار التي رسمت من خلالها كلتا النظريتين مستقبل ومصير العالم، كذلك يمكن التنبؤ بمدى إمكانية تطبيق تلك الأفكار مستقبلاً على أرض الواقع.

1– إضاءات حول المآل المحتمل (لنظرية صراع الحضارات):

لقد تعرض هنتنغتون في نظريته للكثير من الانتقادات حتى من قِبل مفكري الغرب ذاته، وأبرز مثال على ذلك ما بيّنه تلميذه فرانسيس فوكوياما في مقاله المنشور بمجلة "المصلحة الأمريكية" في 27 آب 2018، بعنوان "تراث هنتنغتون"، وهذا ملخّص لأهم ما جاء فيه:

أ– لقد أكد فوكوياما في كتابه هذا على أن مفهوم الهوية أكثر اتساعاً ومرونة من الحضارة القائمة على أساس ديني، ومن خلالها يمكن فهم السياسات المعاصرة، وبذلك يفنّد ما كان هنتنغتون قد أكّد عليه بأن كل حضارة من الحضارات أصبحت أكثر تماسكاً نتيجة لحدوث الاندماج الاجتماعي على المستوى الثقافي، إذ يذهب فوكوياما إلى أن المجتمعات أصبحت مقسمة إلى مجموعة من الهويات الفرعية، وهذا ما يتضح من خلال ظهور الحركات القومية الشعبوية الجديدة في الغرب، وما حصل أيضاً في الولايات المتحدة الأمريكية حين ترسخت سياسة الهوية في أعقاب ظهور الحركات الاجتماعية في ستينيات القرن العشرين حينما شعر الأمريكيون من أصل أفريقي وكذلك النساء وذوو الإعاقة والأمريكيون الأصليّون بالتمييز والتهميش، وفي مطلع القرن العشرين أدى ظهور تيار اليسار في الولايات المتحدة وأوروبا إلى تحقيق التضامن بين أعضاء الطبقة العاملة واحتضان مجموعة من الهويات الجديدة، مما دفع إلى إضفاء نوع من الشرعية على وجود هوية جديدة لليمين.

ب– إن مفهوم الهوية كما يرى فوكوياما يقوم على الاعتراف بكرامة العرق أو الدين أو الأمة وكذلك الاعتراف بالخصائص المميزة لفرد ما، مؤكداً على أن القومية والإسلاموية هي مظاهر مختلفة عن الهوية، فعدم اعتراف العالم بالقومية الصربية في الإمبراطورية النمساوية– المجرية عام 1914 قد دفع غافريلو برينسيب إلى اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند.

ج– يضيف فوكوياما مؤكداً أن الهوية أضحت محدداً لكثير من الظواهر في العالم المعاصر، فعلى سبيل المثال لا يمكن عدّ التطرف الديني بأنه مدفوع بالاعتقاد الديني في حد ذاته، فهناك الكثير من الشبّان الأوروبيين المسلمين الذين تركوا بلادهم للالتحاق بصفوف تنظيم "داعش" الإرهابي في سورية كانوا محاصرين بين ثقافتين: الثقافة التقليدية، والعلمانية الغربية.

د– ويرى فوكوياما في مقاله هذا –على عكس هنتنغتون– أن الدين ليس العامل الأساسي والوحيد في تشكل الهوية في العالم المعاصر، فهناك العديد من عوامل التضامن كالنزعات القومية التي تصاعدت مرة أخرى في دول عديدة مثل الصين وكوريا واليابان بالرغم من انتمائهم إلى الحضارة الكونفوشيوسية، ويتابع مؤكداً على أن الدين رغم أهميته كمحرك للحركات الشعبوية الجديدة في الغرب إلا أنه ليس العامل الوحيد، إذ تتداخل معه عوامل أخرى مثل النزعة القومية القديمة والعرق، والذاكرة التاريخية المشتركة، وعدم المساواة الاقتصادية، ومما يؤيد أيضاً فكرة أن الدين ليس العامل الأساسي في تشكل الهوية في العالم المعاصر هو ما أدى إليه التحديث الاجتماعي الاقتصادي من ظهور قويّ لحركة نسائية عالمية تسعى إلى منح المرأة حقوقها السياسية والاجتماعية ليس فقط في أوروبا وأمريكا الشمالية، بل في البلدان الإسلامية المحافظة.

هـ– ويخلص إلى أن نظرية هنتنغتون لا تتناسب مع الواقع الحالي، فالديمقراطيات الغربية في حالة حرب داخلية على الهويات الوطنية، كما أن الديمقراطيات الليبرالية فقدت الكثير من جاذبيتها بعد الأزمات المالية في أمريكا ومنطقة اليورو خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

و– وينتقد فوكوياما نظرية هنتنغتون الذي أنكر وجود القيم العالمية، حيث يبين فوكوياما أن انتقال المجتمعات من المراحل البدائية إلى هيئة المجتمعات الصناعية الكبرى مروراً بالعديد من المحطات قد حدثت عبر تطور طويل الأمد في مختلف أنحاء العالم كالصين والهند والشرق الأوسط والقبائل الجرمانية التي سيطرت على الإمبراطورية الرومانية، فالاعتقاد بأن عملية التحديث لا يُكتب لها النجاح إلا إذا قامت على القيم الغربية يدحضه التطور الحاصل في شرق آسيا.

ز– ويختتم فوكوياما بأنه في إحدى ندوات ذكرى وفاة هنتنغتون، كان من اللافت للنظر أن العديد من طلاب هنتنغتون عبّروا عن حبهم واحترامهم الكبير لأستاذهم، ولكنهم استمروا في الاختلاف مع بعض أفكاره، ويتابع فوكوياما أنه كان واحداً منهم (Fukuyama،2018).

لم يكن فوكوياما الوحيد الذي تدبّر وتمعّن في تفاصيل نظرية هنتنغتون وقام بانتقادها ودحضها، إلا أن المثير للانتباه هو أن فوكوياما هو أبرز تلامذة هنتنغتون، ناهيك عن إخلاصه الذي امتد طيلة سنوات لأفكار أستاذه، فضلاً عن أن نظرية فوكوياما ذاتها حول (نهاية التاريخ) مع نظرية هنتنغتون لهما نفس الأصل والمنشأ والمشرب والتوجّه، وتُعتَبر كلٌّ منهما مكملة للأخرى، وهكذا في نهاية المطاف تصالح فوكوياما مع نفسه ومع الحقيقة العلمية والواقع، ولم يجد ضيراً في الاعتراف وتصحيح الرؤية، من خلال أمثلة حيّة معاصرة، وصولاً إلى التأكيد على أن (نظرية صراع الحضارات) لا تتناسب مع الواقع الحالي.

2- إضاءات حول المآل المحتمل (لنظرية نهاية التاريخ):

لم تكن نظرية نهاية التاريخ كذلك بمنأى عن النقد العلمي، حتى إن صاحبها فوكوياما عاد بعد قرابة ربع قرن من نشر أفكاره فيها، ليتراجع عن الكثير من مرتكزاتها في كتابه الصادر عام 2014 بعنوان "النظام السياسي والانخراط السياسي: من الثورة الصناعة إلى عولمة الديمقراطية"، حيث خفّت نظرة فوكوياما (التقديسية) للسياسة الأمريكية مقابل الإعلاء من النموذج الدنماركي، فأصبح أكثر منطقية في نظرته للنموذج الأمريكي؛ نتيجة اختلال التوازن بين قدرة الدولة وكفاءتها من جهة، والمؤسسات المصمّمة على تقييد الدولة من جهة ثانية، وهناك أيضاً توتر بين الدولة وحكم القانون والمحاسبة الديمقراطية، وفي هذا الصدد يقول: "بمجرد أن تتكوّن ديمقراطية حديثة، يمكنك أيضاً الرجوع إلى الوراء". ويستكشف فوكوياما في كتابه هذا الطرق التي عمل بها كل من اليسار واليمين لتقويض الليبرالية: "اليمين من خلال تبنّي مبادئ السوق الحرة، التي وسعت عدم المساواة الاقتصادية"، "واليسار بإعطاء الأولوية لسياسيات الهوية على الاستقلال الفردي" (ستيتسمان، 2022).

كما يمكن للديمقراطية نفسها -على حد تعبيره- أن تكون في حالة توتر مع ذاتها، حيث إن محاولات زيادة مستويات المشاركة والشفافية الديمقراطية قد تؤدي فعلياً إلى تقليص التمثيل الديمقراطي للنظام ككل، كما أن النظام الديمقراطي الليبرالي لا يمثل قيمة إنسانية كونية؛ لأنه لم يتشكل إلا قبل بضعة عقود وهي مجرد برهة زمنية في تاريخ النظام السياسي الإنساني. كما أوضح أن بناء الدولة مختلف عن بناء الديمقراطية، فهناك دول ذات أنظمة سياسية تتمتع بأداء فعال وقوي برغم أنها لا تنعم بالديمقراطية، وعلى النقيض تماماً هناك ديمقراطيات قوية ضمن دول ضعيفة وفاشلة (إسميك، 2021).

وعاد بعد ذلك عام 2018 ليوسع أفكاره الجديدة في كتاب له بعنوان "الهوية: مطلب الكرامة وسياسات الضغينة"، وخلاصة ما جاء في كتابه هذا:

أ- أشار في مقدمته إلى أنه لو أعاد النظر في كتابه "نهاية التاريخ" فإنه سيتناول إمكانية تحلل أو تراجع الدولة الليبرالية، وما دفعه لهذا الرأي جملة من المتغيرات كانت قد حدثت خلال ربع قرن، وأهمها الأزمة الاقتصادية العالمية عام 2008 التي دفعت إلى تدخل الحكومات لتأميم بعض الشركات أو إنقاذها من الإفلاس، وهذا عكس مبدأ "اقتصاد السوق"، وكذلك التقدم الاقتصادي والتكنولوجي الذي حققته العديد من الدول وأبرزها الصين التي أضحت ثاني أكبر اقتصاد في العالم، وقد حققت هذا التقدم في ظل نظام غير ليبرالي "على عكس مسيرة التاريخ التي روج لها فوكوياما مسبقاً.

ب- أكد على تراجع مؤشرات ممارسة الديمقراطية على مستوى العالم، فضلاً عن صعود الشعبوية والأحزاب اليمينية المتطرفة إلى المشهد السياسي بقوة ووصولها إلى السلطة، وأخيراً محاولة بعض القوى الانسحاب من الاتحادات والتكتلات الدولية، كخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي ووصول قوى يمينية عنصرية إلى الاتحاد في بعض دول الاتحاد.

ج- ويوضح فوكوياما أنه بالرغم من القيم السامية التي تحملها المجتمعات الليبرالية فإنها لم تنجح في حل مسألة التفاوت الاقتصادي وتحقيق العدالة، ما أدى إلى ظهور الفئات المهمشة والمضطهَدة؛ إذ ساهمت مشاريع الخصخصة مع العولمة والتوجه إلى اقتصاد السوق في اتساع الهوّة بين فئات المجتمع، ما أثّر تأثيراً كبيراً في الطبقة الوسطى المنتجة والفاعلة التي أخذت مشكلات المخدرات والتفكك الاجتماعي والبطالة وغيرها تنتقل إليها.

د- ويرى فوكوياما في كتابه هذا أن المجتمعات الغربية تحولت من مجتمعات ذات هوية واحدة إلى مجتمعات متعددة الهويات أفرزت العديد من المشكلات، أهمها صرف النظر عن قضايا التنمية والمساواة الاقتصادية والاجتماعية والإصلاح السياسي

وتهديد حرية التعبير والخطاب العقلاني، لأن خطاب الهويّات شخصي ذاتي انفعالي يتصادم مع الآخرين وتستند مطالبه الأساسية على أسس عرقية ودينية (42، 2018، Fukuyama).

لقد قدّم فوكوياما مدخلاً قائماً على مفهوم الكرامة كي يفسر صعود سياسات الهوية وانحطاط الديمقراطية، مؤكداً على أن الهوية تنبثق من التمييز بين ذات الفرد الداخلية وبين العالم الخارجي الذي لا يعطيها حق قدرها، فالثراء في مقابل الفقر بالمعنى المادي ليس هو أصل المشكلة، بل تكمن المشكلة في الشعور بالإهانة الذي يترافق مع اللامساواة (جمال، 2018).

إن مجمل ما عالجه فوكوياما في كتابه الأخير عام 2018 كانت قد تنبهت له –من قبلُ– بعضُ الأوساط الفكرية والسياسية والإعلامية في الغرب، ومثال على ذلك ما نشرته عام 2014 مجلة (ذا أتلانتك) الأمريكية في مقال بعنوان (لم تحن نهاية التاريخ بعد)، ورصدت فيه المجلة بوضوح بعض الحقائق البسيطة وأهمها: "لم تنتصر الديمقراطية الليبرالية التمثيلية على كافة أشكال الحكم الأخرى، ولا السوق ولا التجارة الحرة تعملان بكفاءة، بل تتراجعان، وكلها صارت محل شك ونقمة شعبية حتى في الديمقراطيات الليبرالية..."، "وها هو صراع عالمي جديد، وصفته المجلة يومها بحرب باردة ثانية، يندلع بين الولايات المتحدة من جانب وبين الصين وروسيا من جانب آخر" (جمال، 2018).

وبعد الحرب الروسية الأوكرانية في 24 شباط 2022 اعترف فوكوياما بإمكانية أن تواجه نظريته حول (نهاية التاريخ) نهايتها؛ نتيجة لتأثيرات هذه الحرب على مستقبل الديمقراطية الليبرالية، وكان ذلك في اعتراف صريح منه –نقلته ميغان غيبسون المديرة التنفيذية لمجلة (نيو ستيتسمان) البريطانية بعد شهر من اندلاع الحرب–، معتبراً أن (كابوسه النهائي) هو عالم تتعاون فيه الصين وروسيا، وقد يكون ذلك مع تعزيز الصين لحرب روسيا، وقيام الصين بشنّ غزوٍ على تايوان، مؤكداً على أنه لو نجح ذلك (فعندئذ سنعيش حقاً في عالم تهيمن عليه هذه القوى غير الديمقراطية... فهذه حقاً نهاية "نهاية التاريخ") (ستيتسمان، 2022).

وهكذا فإن فوكوياما كان أشد من انتقد نظريته بعد سنوات من الدفاع عنها، بل دحضها وتراجع عنها بالمطلق، منتقلاً من النقيض إلى النقيض تماماً، محاطاً باليأس والانهزام، معترفاً بسقوطها ونهايتها.

الخاتمة:

بعد تبيان الدور السلبي الذي سعت إليه (نظريتا نهاية التاريخ، وصراع الحضارات) في تأجيج الصراع بين الأمم والحضارات، بهدف كسر إرادة الشعوب وتسهيل السيطرة عليها من قِبل دول الغرب، وبعد محاولة دحض علمية هاتين النظريتين العنصريتين، تم السعي إلى تحليل أهم العوامل والمتغيرات التي تبيّن فقدَ بريقيهما في السنوات الأخيرة واحتمال أفولهما مستقبلاً.

وقد أوضح البحث جملة التأكيدات التي تنفي إمكانية استمرار هاتين النظريتين، إذ تعرَّضَ صاحب (نظرية صراع الحضارات) للكثير من الانتقادات والتشكيك حتى من قبل مفكري الغرب ذاته، وأبرزهم تلميذه فوكوياما الذي خلص إلى أن نظرية هنتنغتون لا تتناسب مع الواقع الحالي، منتقداً كثيراً من جوانبها ومنها إنكارها وجود القيم العالمية، مفنّداً أيضاً ما خلص إليه هنتنغتون من جعل الدين أساساً لكل حضارة، إذ أوضح فوكوياما أن مفهوم الهوية أكثر اتساعاً ومرونة من الحضارة القائمة على أساس ديني...

بالمقابل لم تكن (نظرية نهاية التاريخ) لفوكوياما بمنأى عن الانتقاد والتفنيد من قبل الباحثين والمفكرين، بل أكثر من ذلك فقد عاد صاحبها نفسه بعد قرابة ربع قرن من نشر أفكاره فيما يتعلق بنهاية التاريخ، ليتراجع عنها تماماً، وينبئ بسقوطها نتيجة جملة المتغيرات التي شهدها العالم خلال السنوات الأخيرة، مشيراً إلى أن النظام الديمقراطي الليبرالي لا يمثل قيمة إنسانية كونية، وأن هناك إمكانية تحلل أو تراجع الدولة الليبرالية.

في الختام لا بد من التأكيد على أن هناك الكثير من العوامل والمتغيرات التي تبشّر بعدم تحقيق نبوءات هاتين النظريتين مستقبلاً، وبالتالي فشلهما وسقوطهما علمياً وعملياً.

هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل (501100020595).

المراجع:

1- إسماعيل، محمد صادق، (2003)، السياسة الأمريكية تجاه الإسلام والمسلمين بين الأبعاد الثقافية والحضارية والأبعاد الاستراتيجية، مجلة السياسة الدولية، العدد 151، القاهرة.

2- أمين، سمير، (2002)، فخ الثقافوية، نقد كتاب رضا هلال (المسيح اليهودي ونهاية العالم)، مجلة الطريق، العدد الرابع، السنة الواحدة والستون، بيروت.

3- بسيوني، شريف، (2003)، الحرب الأمريكية في العراق- مشروعية استخدام القوة، مجلة السياسة الدولية، العدد 151، القاهرة.

4- الجابري، محمد عابد، (1997)، قضايا في الفكر المعاصر، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

5- الشيخ، أحمد، (1999)، من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب، حوار الاستشراق، ط1، المركز العربي للدراسات الغربية، القاهرة.

6- عروس، سهيل، (2002)، مأزق الليبرالية -نهاية التاريخ نموذجاً-، مجلة الفكر السياسي، العدد 15، السنة 5، بيروت.

7- غارودي، روجيه، (1978)، في سبيل حوار الحضارات، ط1، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت.

8- القطان، فراس، (2025)، "علم الاستغراب" ضرورات التأسيس لمواجهة الخطاب الاستشراقي وصراع الحضارات، مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية، المجلد 149، العدد 2، جامعة دمشق، دمشق.

9- مصطفى، نادية محمود، (2010)، التحديات السياسية الحضارية الخارجية للعالم الإسلامي (بروز الأبعاد الحضارية والثقافية)، ثقافتنا للدراسات والبحوث، المجلد 6، العدد 22، مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية، طهران.

10- هنتنغتون، صاموئيل، (1999)، صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام العالمي، ط2، ترجمة طلعت الشايب، دار سطور، القاهرة.

11- Fukuyama, Francis، (2018)، Identity: The Demand For Dignity And The Politics of Resentment, Straus and Giroux, New York.

12- إسميك، حسن، (2021)، أصول النظام السياسي ومعضلة الانحطاط بديلاً من الديموقراطية الليبرالية- فرانسيس فوكوياما 2021/2/3، الموقع الإلكتروني: www.ae.linkedin.com

13- جمال، وائل، (2018)، فوكوياما: التاريخ الذي لن ينتهي هنا، مركز مالكوم كير_ كارنيغي للشرق الأوسط، 10 أكتوبر 2018، الموقع الإلكتروني www.ieendowment.org

14- ستيتسمان، ذا نيو، (2022)، النقد والسخرية من "نهاية التاريخ" لفرانسيس فوكوياما، الجزيرة، 3-4-2022، الموقع الإلكتروني: www.aljazeera.net

15- يخلف، سعدون، (2018)، علي حرب وصراع الحضارات... علاقة ملتبسة بين الإسلام والغرب، القدس العربي، 5 أكتوبر 2018، الموقع الإلكتروني www.alquds.co.uk

16- Fukuyama, Francis, (2018), Huntington's Legacy, The American Interest, 27-8-2018, www.the-american-interest.com